حسين مني و أنا من حسين

<"xml encoding="UTF-8?>

ما هذه التي ملكتني من يومين ، وأنا أريد أن اعدّ هذا الحديث ؟
ما للكلمات تموت على شفتيّ حتى كدتُ أن أيأس ، وأن ألقي اليراع ؟
ثم ما لي أريد أن أقول يا للبشرى ، فيكتب قلمي يا للأسى ، فهل أنا في حفل مولد أم في ذكرى شهادة ؟
لا أكتمكم ـ أيها السادة ـ أني بكيت قبل أن أكتب ، و بكيت بعد ما كتبت ، و ما أدري ما هو شأني إذا وقفت لأقرأ لكم ما كتبت ؟
ما هذه العاطفة العاصفة التي لا تفارق ذكر الحسين (عليه السلام) حتى عند الإبتسامة لميلاده ؟
و قد قال الأثر الكريم : إن الرسول (صلى الله عليه و آله) بشّر في يوم ميلاده فبكى ، وأنه دخل على ابنته الصديقة (عليها السلام) ليحضنها بوليدها فبكت ، و أن أهل البيت الطاهر (عليهم السلام) قد استقبلوا هذا الوليد الحبيب بالإبتسامات و الدموع .
. . بدموع الحزن . . نعم ، وأحزان أهل البيت هي الأفراح لهم في الصميم!! .
أحزان أهل البيت (عليهم السلام) هي أفراحهم الأثيرة عندهم ، لأن الغايات العظمى التي أنيطت بهم لا تتحقق إلاّ بهذه الأحزان .
و كان السهم الذي ينالونه من قِبل هذا الوليد هو السهم الأوفر ، ولذلك كان بمقدمة أكبر ، وعلى ذلك المقياس الخاص بهم كان فرحهم بمولده أكبر .

الحسين شريك جده (صلى الله عليه و آله)

أيها السادة !
يقول العلماء ـ و هم يفسرون كلمة الرسول (صلى الله عليه و آله) المشهورة أو المتواترة : (حسين مني و أنا من حسين) . .
. . يقولون : إن الكلمة تعني أن الحسين (عليه السلام) شريك جدّه في الدعوة .

ومن عقائد شيعة أهل البيت : أن الأئمة الإثني عشر (عليهم السلام) أجمعين شركاء لجدهم الرسول (صلى الله عليه و آله) في الدعوة ، فهو المؤسّس لها ، والقيّم الأكبر عليها ، وهم ـ من بعده ـ الأمناء القوّامون على حفظها . . فما هذه الخاصة التي يعنيها العلماء بقولتهم تلك ؟

إن الجواب عن هذا ـ مبسطاً ـ يتصعب به القول و يطول ، وحسبي أن أقف ناحية واحدة تتصل بموضوعي الذي بدأت به الحديث .

إن الإسلام دين الله العظيم الذي اصطفاه للناس ، وتوجّ به الشرائع ، وختم به الأديان . . إن هذا الدين منهاج إنساني متكامل ، شرّعه الله لتنظيم هذه المجموعة الضخمة من الغرائز والعواطف والمشاعر والأحاسيس . . لتنظيم هذه المجموعة التي يسمّونها (الإنسان) .

والإنسان ـ كما تعلمون ـ موجود واحد ، و ركائزه النفسية المذكورة ، وإن كثرت وتنوعت أثارها واختلفت تأثيرها ، إلا أنها متشابكة متداخلة ، ووحدتها ـ بعد ـ آتية من قِبَل القوة الحيوية الواحدة ، التي تحرّك جميع هذه القوة ، والطاقة العامة الواحدة التي تمدّها ، و الإرادة الإنسانية الواحدة التي تصرّفها ، والعقل المفكّر الواحد الذي يماك أن يتحكّم فيها .

ومن أجل هذه الوحدة بين نواحي الإنسان ، وهذا التّشابك بين غاياتها ، وبين مجالات نشاطها ، أصبحت كذلك متبادلة التأثير ، فلكل واحدة منها أثر قويّ أو ضعيف في سلوك الأخرى ، وفي اتجاهاتها إلى أهدافها .

والدين الذي يروم إصلاح الإنسان وتقويم أخلاقه وضمان الخير الأعلى له في حياته هذه الأولى المنقطعة وفي حياته الأخرى الدائمة ، لا محيد له من أن يسع هذه النواحي كلّها تنظيماً ، ويعمّها تهذيباً وإصلاحاً .

و كيف يبلغ غايته إذا هو لم يضع ذلك ؟

بل ، وكيف يمكنه أن يُصلح بعض نواحي الإنسان دون بعض إصلاحاً حقيقياً كاملاً ، بعد أن كانت لها هذه الوحدة الملحوظة ، وهذا الترابط المحسوس ؟

و هذه المحاولة البلهاء هي السقطة التي مُنيت بها المسيحية القائمة ، لما وزّعت هذا الكائن إلى جسد و روح ، ثم حاولت إعلاء الروح بإرهاق الجسد ، وكبح غرائزة . .

أقول : هي السقطة التي منيت بها المسيحية القائمة المخرّقة ، والافان دين الله الذي أنزله على السيد المسيح (عليه السلام) أسمى من هذا التفكير .

عموم الهدى يتطلّب عموم التربية

الإسلام منهاج متكامل ، شرّعه الله لتنظيم علاقات الإنسان وسلوكه ، وتهذيب غرائزه وعواطفه ، وإصلاح سرّه وعلانيته ، وأعماله وصفاته . .

و بديهيّ أن الدين لا يستطيع أن يدرك هذا المدى من الإنسان ، وأن يحقق له هذه الغاية مالم يثبّت عقائده و أسسه في عقل الإنسان ومشعره ، و ما لم يمتزج بعواطفه و أحاسيسه ، وبلحمه ودمه .

و كيف يملك أن يهدي العقل مالم يتّصل بالعقل ؟

و كيف يقوى أن يوجّه العاطفة مالم يمتزج بالعاطفة ؟

و كيف يقدر أن يهذّب الأخلاق والعادات ويصلحها إصلاحاً جذرياً مالم يتّصل بينابيعها من النفس ، وبجذورها من

الطبع ؟

إن الدواء ـ مهما احتوى تركيبه من العناصر القوية الفعالة ـ لن يحقق الشفاء حتى ينفذ إلى مكمن الداء ، وان الدين ـ مهما جمع تشريعه من دقائق الحكمة ـ لن يقوّم طباع النفس حتى يصل إلى أعماق النفس .

و البراهين التي عضدت هذه الدعوة في كتباها الكريم ، وفي حديث رسولها العظيم (صلى الله عليه و آله) تنير آفاق النفس من الإنسان ، كما تضيء آفاق العقل ، فهي مدد للفكر ليقتنع ، وهي مدد للقلب ليؤمن ، وهي مدد للمشاعر والعواطف ، ومنافذ الشعور ومصادر الإحساس لتعترف وتتوجّه .

وبرهنة القرآن توليّة حين تمدّ الفكر ، وفعليه تمثيلية حين تكون مدداً للنواحي الاخرى .

ولكن العاطفة ـ أيها السادة ـ ولكن هذا الشعور الرقيق . . ولكن خفقة القلب الإنسان بالجمال ، تبغي ما هو أقرب من ذلك والصق . . إنها تبغي قرباً . . تبغي امتزاجاً . .

لقد تعودت عاطفة هذا الكائن أن يشفيها الاّ القرب ، فلابد للدعوة أن تلج العاطفة وتمزج بها .

فكيف السبيل ؟ . وكيف الوصول ؟

إلاّ بدم الفداء من وريد أبي الشهداء .

وقد قام حسين بهذا الدور من الدعوة ، أ فليس شريكاً لجده فيها ؟ 1

---

1. كتاب : من أشعة القرآن للشيخ محمد أمين زين الدين .